ISSN: 2706-6495

المفاهيمُ التّأسيسيَّة لنظريَّة ما بعد الاستعمار (الاستِشراق، الخِطَاب، التّمثيل، الهَيمَنة)

Basic Concepts of Postcolonial Theory (Orientalism, Discourse, Representation, Hegemony)

إعداد الباحثة/ روضة علي الحمادي

ماجستير في اللغة العربيَّة وآدابها، كلية الآداب والعلوم، جامعة قطر، دولة قطر

Email: ra1307521@qu.edu.qa

الملخص:

تُعدُّ نظريَّة ما بعد الاستعمار إحدى أهمِّ وأحدثِ النظريّات ذاتِ الطّابعِ الثّقافيّ والمرجِعيَّات البينيَّة في السَّاحة النّقديَّة الحديثة، وتُشكِّلُ حقلاً معرفيًّا حديثَ النّشأةِ يُنَاقشُ قضايا وموضوعاتٍ عديدةً يمكن تطبيقُها على آدابِ كافَّة الشُّعوب التي عانت رِبقةَ الاستعمارِ، وعلى رأسِها الشّعوب العربيَّة التي كانت ومازالت تعاني من استعمارٍ فكريّ وثقافيّ واقتصاديّ. وقد قامت هذه النّظريّة باستنادها على مفاهيم جوهريَّة هي: الاستشراق كما جاء به إدوارد سعيد، والتّمثيل (Representation)، والخطاب، والهيمنة؛ إذ ولّدت تلك المفاهيم بارتباطها وتلاحمها نظريّة ما بعد الاستعمار وأسهمت في إرساء دعائمها، وعليه يتحرّى البحث دراسة وتحليل وتتبّع المفاهيم التّأسيسيَّة لنظريّة ما بعد الكولونياليَّة والتي لا غنى عنها في إطار فهم النظريَّة، إلى جانب دراسة أثرها في نشأتها. وخلص البحث إلى جُملة من النتائج من أهمها أنّ مفهوم الاستشراق كما جاء به إدوارد سعيد -وما يرتبط به من مفاهيم أخرى كالتّمثيل والهيمنة- أسهم بصورةٍ مُباشرة في تشكيل أطروحات نظريّة ما بعد الكونياليَّة وفهم الظاهرة الاستعمارية وتمظهراتها المُختلفة، إضافةً إلى بيان أنّ الأيديولوجيّة الكولونياليَّة مُؤثّرة للغاية؛ لأنّها مدعومَةٌ بوسائلَ وأدواتٍ تؤثر في الطّريقة أو الصّورة التي ننظر بها إلى أنفسنا والآخرين. إلى جانب ذلك يتّضح من خلال البحثِ تَعدّد أشكالِ القوى الكولونياليَّة أو الاستعماريَّة وأساليبِها وأدواتها فتارّة تعتمد على التّمثيل، وتارة تلجأ للاستشراق، وتميل لتوظيف الخطابات في فرض الهيمنة، مِمّا يؤكّدُ أنّ الاستعمار في العصر الحديث استعمارٌ جديدٌ مُضمر يُغيّر جلده ويتحوّلُ عن أساليبه التقليديَّة الصّريحة إلى أساليبَ أشدَّ خفاءً وتأثيرًا لضمانِ تحقيق أهدافه وصون سيادته وهيمنته.

الكلمات المفتاحية: ما بعد الاستعمار، ما بعد الكولونيالية، الاستشراق، التمثيل، الهيمنة، الخطاب الأدبي، الخطاب الكولونيالي، السلطة.

ISSN: 2706-6495

Basic Concepts of Postcolonial Theory (Orientalism, Discourse, Representation, Hegemony)

Abstract:

Post-colonial theory is one of the most important and newest theories of cultural and literary criticism. The theory constitutes a field of knowledge that discusses many issues that can be applied to all peoples who suffered from colonialism, especially the Arabs. This theory was based on the core concepts of Orientalism -as stated by Edward Said-, representation, discourse, and domination. As these concepts generated by their connection to the post-colonial theory and contributed to the establishment of its bases, and for this reason the research investigates the study and analysis of the foundational concepts of the theory and its effects on it, and the research concluded with several results. The most important of them is that Orientalism and other related concepts such as representation, discourse and domination contributed to the understanding of the colonial phenomenon in its various forms. The research also shows the multiplicity of forms, methods and means of colonialism, which confirms that colonialism in the modern era is hidden and implicit, transforming from its explicit traditional methods to more covert and influential methods to ensure the achievement of its goals, and the preservation of its hegemony.

Keywords: Post-colonialism, Orientalism, colonial discourse, representation, hegemony, literary discourse, Authority, cultural criticism.

Introduction / المقدمة

تَشهدُ حركة النّقد عالميًّا وعربيّا تحوّلاتٍ جذريَّةً لاسيما في مرحلة ما بعد البنيويَّة وما بعد الحداثة، ومع الثّورة الفكريَّة والصّراعات الثقافيَّة؛ إذ برزت اتّجاهات ومناهج نقديَّة جديدة تُلائم الأوضاع الرّاهنة، منها: النقد الثقافي، والماركسيّة الجديدة، والتاريخانية الجديدة، والنقد النسوي، إضافةً إلى دراسات ما بعد الاستعمار التي تنامى الاهتمامُ بها بعد نشر كتاب (الاستشراق 1978) للناقد الفلسطينيّ الأمريكيّ إدوارد سعيد.

ISSN: 2706-6495

وتُشكِّل نظريّة ما بعد الاستعمار أو ما بعد الكولونيالية حقلًا مركَزيًّا من حقول النَّقد الثقافيَّ أو الدّراسات الثّقافيَّة متعدّدة الفروع، فهي نظريَّة نقديّة حديثَة تسعى إلى دراسة الآثار الثقافيَّة والاجتماعيَّة والاقتصاديَّة التي خلّفَها الاستعمار -بأَنواعه- على الشعوب المُستعمَرة.

ونظريَّة ما بعد الكولونياليَّة هي النظريَّةُ التي أُرِّخ لخطابها منذُ أن نشر إدوارد سعيد كتابه (الاستشراق) عام 1978، ثُم بُحِث خطابها بتوسّع وتَبلورَت أُطره في الثمانينيات. وتحقَّقَ نُضج النظريَّة واستقرارُها وظهورُها الرَسمِيّ في إطار النظريَّات النقديَّة الحديثة في بدايَة التّسعينيّات (Halwey, 2001) وتستند هذه النظريَّة على فكرِ ما بعد الحداثة الذي يربط بين نظريّة المعرفة وعلاقات القوة في المجتمعات، وَقد تولَّدَت نتيجةَ البَحث في الذّات ومُشكلاتها، فهي مُحصّلَة فكرِ نقّاد ودارسين يَنتمون إلى دول خارج المَركز الغربيّ، كابَدوا وَطأَةَ الاستعمار وتَبعاته وآثاره، وحالَةَ التّشظّي بين الأنا والآخر، وأزمة الاستعمار الجَديد. فقد "تشكَّلت النظريَّة بتضافر ثلاثة اتّجاهات مُتمثّلة في إدوارد سعيد ومفهومهِ عن الاستشراق، ودراسات التَّابع، والثَّقافة الأفريقيَّة" (أبو شهاب، 2013)

ويُميّزُ هذه النظريَّة تقاطُعها مع حقول معرفيَّة عديدة مِن أهمّها العلوم السياسيَّة، وعلم الاجتماع، وعلم النّفس والتّحليل النَفسيّ، والفلسفة، والتّاريخ، ونظريَّات الاتصال. وتُركّزُ نظريَّة ما بعد الكولونياليَّة على تبعات الاستعمار وآثاره على المجتمعات والثّقافات والأُمم واللغات، وقد "انتشر مصطلح ما بعد الاستعمار (الكولونياليَّة) في مُعظم الدّراسات النقديَّة كونه يحملُ دلالة ما قبل، وما بعد" (أبو شهاب، 2013)

فرضيّة البحث:

ينطلقُ البحث من فرضيّةٍ مفادها أنّ هناك مفاهيم أساسيَّة قامت عليها نظريّة ما بعد الاستعمار واستند عليها أعلام ما بعد الاستعمار -إدوارد سعيد، فرانز فانون، هومي بابا، غاياتري سبيفاك- في تشكيل أطروحاتهم التي أسّسوا بها النّظريَّة ولولاها لما برزت هذه النظريّة كنظريّة نقديّة معرفيّة، وهذه المفاهيم هي: الاستشراق والتّمثيل Representation، إضافَةً إلى مفهوميّ الخِطَاب والهيمنة. ويفترضُ البحثُ أنّ فهم أساسيّات ما بعد الاستعمار يعتمدُ على فهم وتحليل تلك المفاهيم؛ إذ لا يُمكن فصلها عن النظريَّة.

أهداف البحث:

- تحليل وكشف المفاهيم التّأسيسيَّة التي أسهمت في ظهور نظريّة ما بعد الاستعمار.
- بيان أثر تلك المفاهيم في ظهور النظريّة وتأسيس أطروحاتها.
- بيان كيفيّة استفادة أعلام نظرية ما بعد الاستعمار من المفاهيم التأسيسيَّة، وكيفيّة توظيفها في تشكيل نظريّة ما بعد الاستعمار.

- **أهميّة البحث:**

تعودُ أهميّة البحثِ لحداثة نظريَّة ما بعد الاستعمار التي تبلورت أُطرُها المعرفيَّة والمنهجيَّة في أواخر الثمانينيّات، وتحقّقَ نُضجُها واستِقرارُها في بداية التسعينيّات، وعَلَيه فالموضوع فيه جدّة، وهو ما يضيف إليه أهميَّة خاصَّة. وكذلك حاجة المكتبة العربيَّة النقديَّة إلى دراسات تنتمي إلى هذا الحقلِ المعرفيّ الحديث (حقل دراسات ما بعد الاستعمار).

مفهوم الاستعمارِ ونظرية ما بعد الاستعمار:

تُشيرُ لفظة الاستعمار لُغويًّا في المعجمات العربيَّة إلى معاني البناء والتّعمير، وتقع الكلمةُ تحت مادة (عَمَرَ)، فجاء في لسان العربِ: يُقال: "عَمَر اللهُ بك منزِلَك يَعْمُره عِمارة وأَعْمَره جعلَه آهِلاً. ومكان عامِرٌ: ذو عِمَارةٍ. ومكان عَمِيرٌ: عامِرٌ. أَعْمَره المكانَ واسْتَعْمَره فيه: جعله يَعْمُره. وفي التّنزيل العزيزِ: ﴿هوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود:61]، أَي أَذِنَ لكم في عمارَتِها واستخراجِ قَومكم منها وجعلكم عُمَّارَهَا" (ابن منظور، د.ت).

ويعود مصطلحُ الاستعمارِ في مُعجم اللغة العربيَّة المُعاصرة إلى "استعمرَ الأَرْضَ أي عمّرها، أمدّها بما تحتاجُ من الأيدي العاملة لتصْلُحَ وتعمُر، واسْتَعْمَرَ الله عبادَه في الأرضِ: أي جعلهم ساكنيها وعُمّارًا لها، والإِسْتعماريَّة: اسم مُؤنّث منسوب إلى استعمار، والدَّول الاستعماريَّة: الدولُ التي تحتلُّ غيرَها وتفرضُ سيادتها وسيطرتها عليها، والسّياسةُ الاستعماريَّة: سياسةٌ استيطانيَّة تهدُف إلى فرض الهيمنة على دولةٍ أخرى واستغلال مواردِها الاقتصاديَّة" (عمر، 2008).

وهذا ما يؤكّده قاموس أكسفورد في تعريف الاستعمار (colonialism) كونه مُمارسة تُفرَض مِن خلالها السَّيطَرةُ على بلدٍ آخر باحتلاله واسْتِغلَالِه اقتصاديًّا، وتُعرّف كلمة (colonization) أنَّها عَمليَّة فرض السَّيطرة على منطقةٍ ما أو بلدٍ ما ليس مِن ملكك باستخدَام القُوَّة. ومهما تعدَّدَت واختلفت المَدْلُولَات اللغويَّة للفظةِ الاسْتِعْمَارِ، وتنوَّعَت صُورُه وأساليبه يظلّ حركةَ توسّع تقوم بها دولة قويّة على حساب دولةٍ أخرى، فتقوم بإخضاعها عنوةً، لاحتلالها ولنهب ثرواتها الطبيعيَّة وتسخير ثرواتها البشريَّة في خدمة مصالحها وتحقيق غاياتها.

أمّا الاستعمار اصْطِلاحًا، فيحملُ مدلولًا سياسيًّا يشيرُ إلى "عمليّة ارتبطت بالتحرك (الجيو-سياسي) لبعض القوى؛ للسيطرة والهيمنة على مناطق آهلة. فالاستعمارُ هيمنةٌ على المكان الذي تقع عليه السيطرة والتملّك والمُصادرة في المقامِ الأوَّل، وكل ما هو فوقَ المكانِ، بما يحتويه من مصادر ووجود إنسانيّ" (أبو شهاب، 2013).

وتُعرِّف (الموسوعة المُيسّرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المُعاصرة) الاستعمارَ أنّه ظاهرةٌ سياسيّة اقتصاديّة وعسكريّة، ظهرت بظهور الإمبراطوريّات منذ العصر القديم آشور وبابل وفارس.. وظهرت في أوروبا في العصر الحديث بظهور القوميّات، وحركة الكشوف الجغرافيّة، وقيام المذهب التجاري، متأثِّرةً في أصولها الفكريّة برواسب الفلسفة الأرسطيّة في العقليّة الأوروبيّة، حيثُ نبرة استعلاء الجنس الآري وتميّزه، وأنّ من عداه فهو عبدٌ وله عقليّة العبيد، وعلى ذلك فإنّ تسميته بالاستعمار تشويش على المعنى الحقيقي له، فالأولى تسميته استعبادًا لا استعمارًا. (الجهني، 2003)

ISSN: 2706-6495

والاستعمار ظاهرةٌ واسعةُ الانتشار في التّاريخ الإنساني، كما لدى الإمبراطورية الرومانية والصينية، والمغول، وغيرها الكثير، إلا أنَّ الاستعمار الأوروبيَّ كان مُختلفًا إذ "أعلن أنواعاً جديدة ومُختلفة من الممارسات الاستعماريَّة التي غيّرت الكرة الأرضية بأكملها بطريقة لم تفعلها الأنواعُ الأخرى من الاستعمار" (لومبا، 2007)، فالاستعمارُ الأوروبي ذهب إلى أبعد من سلب الأراضي واستخلاص الثروات، فأعاد بناء اقتصاديَّات البلدان المُستعمَرة مُحدثًا اختلالاً في التوازن الاقتصادي الذي كان أساسيًا لنمو الرأسماليَّة والصناعة الأوروبيَّة، واستعمل عددًا من الوسائل والطرق لفرض الهيمنة، وعلاقات التّبعيَّة والسّيطرة الاقتصاديَّة والاجتماعيَّة والتّدخّل بالبنى الثقافيَّة والسّياسيَّة لأُمّة أخرى.

يؤكّد أنور الجندي هذه الفكرة بقوله إنَّ الاستعمار بمفهومه الشّائع ظاهرةٌ حديثة في تاريخ الأُمم، ارتبطت بالحضارة الغربيَّة الحديثة التي ظهرت في القرن الخامس عشر الهجري في أوروبا، واستطاع العلم التجريبي أن ينقلها إلى ثورة الصناعة، فكان الاستعمارُ هو محور هذه الثورة حيث لم تكن أوروبا تملك من المواد الخام إلا قليلًا من الفحم؛ ومن هنا ارتبطت الصناعة الحديثة بالاستعمار حيث زحفت البلاد الأوروبيَّة على الشرق، واحتلّت مناطقَ مُتعدّدةً استطاعت أن تحصلَ منها على الخامات التي ازدهرت بها صناعتها. وعملت القوى الاستعماريَّة في الوقت عينه على السّيطرة على التّعليمِ والثّقافةِ والصحافة، وفرْض النُّظم السياسيَّة والاقتصاديَّة والقانونيَّة الغربيَّة. ولقد كانت دعوى الاستعمار الأوروبيّ الغربيَّ هي دعوى التّمدين ونقل الشعوب المتنافرة إلى مجال الحريَّة، مع نظرتهم للمستعمَر على أنّه عنصرٌ أقلُّ درجةً من الرجل الأبيضِ حامل الحضارة، وإيمانهم بأنّ الشّعوب الملوّنة ليست أهلًا للحريَّة ولا للرفاهيَّة. (الجندي، د.ت).

أمّا مُصطلحُ ما بعد الاستعمار أو ما بعد الكولونياليَّة فيأتي من أنَّ "العالمَ بات بأسْره ما بعد استعماريّ؛ فالنظامُ الكونيّ الجديد لا يعتمدُ على الحكم المُباشر، ولكنه يسمحُ لبلدان باختراق بلدان أخرى، اقتصاديًا وثقافيًا وسياسيًّا بدرجاتٍ مُتفاوتة" (لومبا،2007). ويُعنى بنظريّة ما بعد الاستعمار "دراسة جميع الثقافات والبلدان والأمم من حيث علاقات القوّة التي تربطها بسواها، أي الكيفيّة التي أَخضعت بها الثقافاتُ الغالبةُ الثقافاتِ المغلوبةَ لمشيئتها، والكيفيّة التي استجابت بها الثقافاتُ المغلوبة لذلك القَسْر، أو تكيّفت معه، أو قاومته، أو تغلّبت عليه، وتُشير صفة ما بعد الاستعمار هُنا إلى علاقات القوّة السّياسيّة والثّقافيَّة، أمَّا المدّة التاريخيَّة التي تُغطّيها فهي التاريخ كلُّه". (روبنسون، 2005) .

وستنتج التّعريفات السابقة أساليبَ وأشكالاً عديدة للاستعمار، تتشكل من خلال طغيان الاستعمار الغربيّ على دول الشَّرق. وقد كانت حركةُ الاستشراق كما يعتقد إدوارد سعيد هي الأداة التي استعملها المستعمِر للوصول إلى غاياته وأغراضه، وتوسِعة نفوذه على الشرق. وبالهيمنة الغربيَّة هيمن الفكر المادي وساد النمط الكولونيالي في المجتمعات،

حيث بات ينظر كلُّ إنسانٍ للآخر وكل شعب للآخر من منظور مدى منفعته ومدى قوته. (المسيري، 2009) ومِن هُنا تنبثقُ أهميَّة تتبع وتحليل المفاهيم التي أسّست ومهّدت لظهور نظريَّة ما بعد الكولونياليَّة، والتي تُعدّ أركانًا أساسيّةً قامت عليها النّظريَّة.

ISSN: 2706-6495

- الاستِشراقُ (Orientalism):

يُعدّ الاستشراق من المفاهيم الجوهريَّة في نظريَّة ما بعد الاستعمار. وذلك لأنّ كتاب الاستشراق (1978) لإدوارد سعيد من دعائمِ النظريّة. وقد تتبَّع فيه تطوّر مفهوم الشّرق تاريخيًّا في كتابات الروائيين والمفكرين والرحّالة الغربيين، وعلاقة هذا المفهوم بتعريف الغرب لنفسه على أنّه مفهوم مناقضٌ للشرق، واستخدام القوى الإمبرياليّة له لتبرير الاستعمار، فقام سعيد بتفكيك الخطاب الاستشراقيّ، وتشريح آدابه ومقولاتِه المتراكمة حول الشّرق منذ عقود، ودرَس نيّاتِ الاستشراق الاستعماريَّة المُبطّنة مُعتمدًا في أساسه الفكريّ على الارتباط الوثيق بين المعرفة والسّلطة والقوّة. وتوصل إلى نتيجةٍ مفادها أنَّ الاستشراقَ أداةٌ معرفيَّةٌ وظّفها الغربُ ليحكم سيطرَته على الشّرق.

يشيرُ مُصَطلحُ الاسْتِشراق (Orientalism) في مَدْلولِه الأساسيّ والمُتدَاوَل إلى الاهتمام العلميّ والأكاديميّ الغربيّ بالثقافات الشّرقيَّة تحديدًا الشّرقين الأقصى والأدنى، وما يتضمّنه ذلك الاهتمام من دراسة، وترجمة، وتحقيق، ونشر. ومن ناحية أخرى يُشيرُ المُصطلحُ إلى توجّهاتٍ في الفنون الغربيَّة اسْتُلْهِمَ الشرقُ بمقتضَاها ووُظّف فنيًّا.

وقد طرأ تحوّل جذريٌّ في مدلول المصطلح بعد إصدارِ إدوارد سعيد كتابَه، إذ عَرَّف الاستشراق على أنّه "أسلوب تفكيرٍ يقومُ على التمييز الوجوديّ والمعرفيّ بين ما يُسمّى الشَّرق وما يُسمّى الغَرب، وهو أسلوبٌ غربيّ للهَيمنةِ على الشّرق، وإعادَة بنائه، والتسلّط عليه" ذلك أنَّ "العلاقة بين الغربِ والشرقِ علاقةُ قوة، وسيطرَة، ودرجات مُتفاوتة من الهَيمنة المُركبَّة". (سعيد، 2006).

ولهذا فإنّ إدوارد سعيد ينظرُ للاستشراقِ على أنّه التفاهُم مع الشَّرق بأسلوبٍ قائم على المكانةِ الخاصّة التي يشغلُها هذا الشَّرق في الخبرة الأوروبيَّة الغربيَّة. فالشَّرقُ بالنسبة لأوروبا هو موقع أعظم وأغنى وأقدم مستعمرَاتها، وهو مصدرُ حضارتها، ومُنافسها الثقافيّ. ويُمثّلُ الشَّرقُ صورةً من أعمق صور الآخر وأكثرها تواترًا لدى الأوروبيين. وقد ساعد الشَّرق في تحديد صورة الغرب بوصفه الصورة المُضادّة، ولهذا فإنّ الشَّرق جزء لا يتجزّأ من الحضارة الماديَّة والثقافيَّة الغربيَّة؛ وعليهِ فإنّ الاستشراق "أسلوب للخطاب؛ أي للتفكير والكلام، تدعمهُ مُؤسّسات ومفردات وبحوث عمليّة، وصور، ومذاهب فكريّة، بل وبيروقراطيَّات استعماريّة وأساليب استعماريّة" (سعيد، 2006).

وقد استلهم سعيد مفهوم الخطاب لدى ميشيل فوكو واستثمرَهُ في تحليل كيفيَّة تحوّل الخطاب الاستشراقيّ الغربيّ المتدثّر بإقصاء الآخر والتّعالي عليه إلى تقاليدَ ومُسلّماتٍ تشرّبها المُنتمون إلى الثّقافة الغربيَّة. وهُنا تتّضح أهميَّةُ تحليل المفاهيم والمصطلحات الأساسيَّة لنظريّة ما بعد الكولونياليَّة؛ إذ ترتبط كل واحدة منها بالأخرى، ولِفهم مصطلح ما لابدّ من فهم الآخر، مما يُفضي بعد ذلك لفهمٍ أشمل لنظريّة ما بعد الاستعمار.

يقول إدوارد سعيد حول هذه المسألةِ: إنّ "امتثال النصوص -الاستشراقيَّة- لا تقتصرُ قدرتُها على خلْق المعرفة، بل تتجاوزها إلى الواقع نفسه، وبمرورِ الزّمنِ تُؤدّي هذه المعرفة وهذا الواقعُ إلى إرساء تقاليدَ مُعيّنة،

أو ما يُسميه ميشيل فوكو خطاباً مُعينا، ويعدّ وجوده المادي أو وزنه المادي -لا أصالةَ كاتبٍ من الكتاب- المسؤولَ الحقيقيّ عن النصوص التي أدى إلى كتابتها" (سعيد، 2006).

فانطلق سعيد في (الاستشراق) من مُلاحظة ثاقبةٍ أبداها جامباتستا فيكو (Giambattista Vico) (1668-1744) الذي أفصح عن تأثّره الشديد به، مفادها أنَّ البشر هم الذين يصنعون تاريخهم بأنفسهم، وأن ما يستطيعون أن يَعرفوه محدودٌ بما صنعوه، مُطبّقًا هذه المُلاحظةَ على الحقائقِ الجغرافيّة، ليُدرك أنّ البشر هم الذين يصنعون المناطق، والقطاعات الجغرافية مثل (الشّرق) و(الغرب) "فكلٌ منهما كِيانٌ جغرافيّ ثقافي، ناهيك بكونه كيانًا تاريخيًّا، وهكذا فإنّ الشرق، شأنُه في هذا شأن الغرب نفسه، يُمثّل فكرة لها تاريخ وتقاليد فكرية، وصور بلاغية، ومفردات جعلتها واقعًا له حُضوره الخاص في الغرب وأمام الغرب، وهما إلى حدٍ ما يعكسان صور بعضهما "(سعيد، 2006).

كما اعتمد سعيد على مفهوم الهيمنة لدى غرامشي مُعبّراً أنه مفهومٌ لا غنى لنا عنه في "إدراك الحياة الثقافية في البلدان الصناعية في الغرب، ولقد كانت الهيمنة، أو قُل النتيجة العملية المترتبة على الهيمنة الثقافية هي التي كتبت للاستشراق استمراره وقوّته"(سعيد، 2006). إلى جانب استلهامه أطروحات غرامشي حول العلاقة بين المُثقّف والسُّلطة، وذلك في تمييزه بين المُثقّف التقليديّ والمُثقّف العضويّ الذي احتفى به سعيد لدوره الإيجابيّ في الطّبقة التي ينتمي إليها.

وقد مكّنت استعارةُ المفاهيم الغرامشيّة سعيد من إسباغ بُعدٍ إضافيّ على دراسة الرّوايات التّاريخيَّة والإمبرياليَّة، فضلًا عن المُقاومةِ الثقافيَّة، وأكسبته المقدرة على فهم نظريَّة السّلطة السّياسيَّة والصيرورات الثوريّة ودورها في صناعة التّاريخ، ولهذا يستدعي سعيد مفهوم الهيمنة وشخصيَّة غرامشي للتشديد على حاجةِ المُثقّف لمناوَأة أيّ مُمارسة سلطويَّة. (واليا، 2007)

وينفي سعيد أن يكون الاستشراقُ مجرَّد حقل يتجلّى في الثقافة، أو البحث العلمي، أو المُؤسَّسات الأكاديميَّة، أو مجموعة غير مترابطة من النّصوص المَكتوبةِ عن الشَّرق، بل إنّه الوعي الجغرافيّ السياسيّ المبثُوث في النّصوص العلميَّة والاقتصاديَّة والاجتماعيَّة والتاريخيَّة واللغويَّة، وهو تطوير تفصيليّ ليس فقط للتمييز الجغرافيّ الذي يقول إنَّ العالم ينقسمُ إلى نصفين غيرِ متكافئين هما الشَّرق والغرب، بل أيضًا لسلسلةٍ كاملة من المصالح التي يستعينُ في تحقيقها والحفاظ عليها بشتَّى الوسائل. وهو خطابٌ يحيا في إطار التّبادل المتقلّب مع شتّى أنواع السّلطة، فيتشكَّل إلى حدّ كبير من خلال مبادلاته مع السُلطة السياسيَّة مثل المؤسَّسات الكولونياليَّة أو الإمبرياليَّة، والسُلطةِ الفكريَّة مثل العلوم السّائدة كاللغويّات المقارَنة أو التّشريح أو أيّ من العلوم السّياسيَّة الحديثة، والسُّلطةِ الثقافيَّة مثل المناهج المعتمدة للذّوق والنّصوص والقيم، والسلطة الأخلاقيَّة مثل الأفكار الخاصَّة بما نفعله (نحن) ولا يستطيعون (هُم) أن يفعلوه أو يفهموه مثلنا (نحن). (سعيد، 2006).

وينطلقُ سعيد في دراستِه للاستشراق من بُعدين أكّدهما في كتابه؛ بُعد منهجيّ، وبُعد شخصيّ، فيقول "لقد كانت دراستي للاستشراق من عدّة زوايا مُحاولةً لإعدادِ قائمة بالآثار التي خلّفتها في نفسي باعتباري ذاتًا شرقيّة تلك الثّقافةُ التي كانت سيطرتُها عاملًا قويًا في حياة جميع الشّرقيين"، وكان من أغراضه الرّئيسة في دراسته للاستشراق توضيحه وتحليله وتأمّله باعتباره صورة من صُور ممارسة القوّة الثقافيّة" (سعيد، 2006).

ISSN: 2706-6495

ويُؤمن سعيد أنَّ الخطابَ الاستشراقيّ لا يمثّلُ بالأساس محاولةً غربيَّة لفهمِ الشّرق أو إنتاج معرفةٍ بريئَة حوله، إنما كان خطابًا وظيفيًّا أدّى مهمّتين رئيستين:

المهمةُ الأولى تكمنُ في وضع الشّرق مُقابلًا للغرب بوصفه النّقيض الذي يمثّل كلَّ ما لا يمثّله الغرب، أي أنَّه يعيدُ تعريف نفسه وقيَمِه بإعادة تعريف الشّرق بوصفه مُخالِفًا لكلّ ذلك، على سبيل المثال: الغربُ ديمقراطيٌّ والشَّرق استبداديّ، الغرب متحضّر والشرق متخلّف. وهكذا فإنَّ "كلّ ما يَأْباه الرّجل الغربيُّ على نفسه، يُسقطُه على الآخَرِ الشرقيّ، فالأنا الغربيّة عقلانيةٌ ومنهجيّة وحكيمة ومهذّبة، أما الآخر الشّرقيُّ فهو لاعقلاني، ولا منهجي، وساذج وفظّ" (سعيد، 2006).

والمهمة الثّانية التي يؤديها الخطابُ الاستشراقيّ مهمّة كولونياليَّة قائمة على الوصف والتّحليل وإصدارِ المعرفة عن طريق وصفه المؤسسةَ المشتركة للتّعامل مع الشّرق؛ مِما أدّى إلى تكوينِ فكرةٍ أيديولوجيَّة كولونياليَّة مفادها أنّه مِن واجبِ الغربِ أنْ يَحملَ النّورَ و الحضارة و التّقدُّمَ والحريَّة لأولئك الشّرقيين المُتخلّفين في كلِّ المَجالات، وما هذه إلا خطاباتٌ أيديولوجيَّة فجَّةٌ غَرضها الأوَّل والنهائيّ هو الهَيمنة الاستعماريَّة على هذا العَالم الآخر، وبتحديد أدقّ هو مناورة حاذقة تدعم و تسهمُ في تشكيل صورةٍ للغرب على أنّه يُمثّلُ حضارة متفوّقة، والعرب حضارة مُتخلّفة.

وقد دَعَم الاستشراقُ المعرفةَ المؤكّدة بأنّ أوروبا أو الغرب يسيطر على القسم الأكبر من سطح الأرض، فتزامَنت مرحلة التّقدم الهائل في مُؤسسات الاستشراق ومضمونه تزامنًا دقيقاً مع مرحلة التّوسّع الأوروبي، فاتّسع نطاقُ السّيطرة الاستعماريّة الأوروبيّة من نحو 35% من سطح الأرض إلى نحو 85% منه. (سعيد، 2006).

إذًا إنّ جوهر الاستشراق هو التمييز المُتأصّل بين التفوّق الغربيّ والدونيّة الشّرقيَّة، ويؤكّد إدوارد سعيد ذلك في شتّى فصول كتابه، فيُشدّد على أنَّ الاستشراق يتخلّله الكثيرُ من "أفكار التفوّق الأوروبيّ، وشتّى ألوان العنصريَّة، والإمبرياليَّة، وكذلِك الأفكار المُتصلّبة عن الشرقيّ بصفته لونًا من ألوان التّجريد المثاليّ الذي لا يتغيَّر"، وتكمن مخاوف إدوارد سعيد من الاستشراق في أمرين، هُما: "التّشويه، وعدم الدقّة، أو بالأحرى ذلك اللون من عدم الدقّة الذي ينتج عن التّعميم القائم على الجمود المذهبيّ المُبالغ فيه، أو عَن التركيز على حالات فرديَّة" (سعيد، 2006).

ويُوسِّع سعيد إطار تحليلاته للاستشراق والتي ستفضي لاحقًا لتكوين أبرز أطروحات نظريَّة ما بعد الاستعمار في مُؤلَّفاته التّالية، لاسيما كتاب (الثّقافة والإمبرياليَّة- culture and imperialism - 1993) الذي يفصلُ بينه وبين (الاستشراق) زمنيًّا خمس عشرةَ سنةً "لكنّهما على مستوى التّصوّر والتّخطيط جزءَان مُتّصلان من مسارٍ فكريٍ واحد" (سعيد، 2014).

ففي (الثّقافة والإمبرياليَّة) يقوم سعيد باستحضار المُشكلات التي عالجها الاستشراق في سياقٍ أوسع مُحاولًا تقديم أجوبة عن أسئلة أثارها الاستشراق، واستكمال تلك الأسئلة. وأيضًا أن يكون أكثر تحديدًا فيما يخصّ مقولاتٍ منهجيَّة مُتعدّدة، وبين أبرز هذه المقولات: القراءةُ الطّباقيّة، وأولويّة الجغرافيا، والتّحليلُ الدّقيق للاستراتيجيّات الإمبرياليَّة، كما للمُعارضة والمُقاومة ضدّ الإمبرياليَّة. (سعيد، 2014).

ويَنطلقُ سعيد في كتابه (الثقافة والإمبرياليَّة) من موقفٍ فكريّ وأخلاقيّ يُؤمن فيه بالإنسانِ، وحُريّته، وضرورةِ التّواصل، والتّفاعل، والإثراءِ المُتبادل بين الثّقافات والمُجتمعات، والصّراع ضدّ الاستعلائيَّة والاستعمار والإمبرياليّة والهيمنة والتّسلّط والمركزيّة الغربيّة. مُتناولًا نماذجَ روائيَّة جوهريّة مثل (قلب الظلام) لجوزيف كونراد (1857-1924)، و(رَوْضَةُ مانسفيلد) لجين أوستن (1775-1818)، و(الغريب) لألبير كامو (1913-1960). ويُقدّم نظريّات وتأويلات جديدة مُتعلّقةً بحركة المُجتمعات الإنسانيَّة، وحركة التَّاريخ، والثّقافة، والأدب -لاسيما الرواية- فيطرح سعيد في تأويلاته الجديدة على سبيلِ المثال نظريّةً في نشأة الرواية وتاريخها؛ ويفسّرُ انتشارَ الروايةِ المُلازمَ لانتشار الإمبرياليَّة وفكرة الإمبراطوريَّة، فهو يربطُ بين تجاوز الفضاء الجغرافيّ والرواية، وبين حركة التّوسع الإمبراطوريّ وازدهار الرواية، لا ربطًا آليًّا جامدًا، بل ربطًا حيويًّا خلاقًا. (سعيد، 2014).

إذاً فمن أهمّ النتائج التي توصّل لها سعيد في دراسته للاستشراق وأطروحاته التي أسّس بها نظريّة ما بعد الكولونياليَّة هي أنَّ الغرب يقف من الشّرق موقف الوصي على القاصر، إذ يراه عاجزاً عن أن يَحكُمَ نفسه بنفسه، أو أن يمثّل نفسه ويتحدّثَ عن نفسه. ومركزيّة الغرب وهامشيّة الشّرق هي ثنائيّة أقنع الغرب بها نفسه بعد أن (صنع) شَرقه بصورة مناقضة له تؤهّله إلى أن يكون في مرتبة عليا. وأنَّ معرفة الغرب للشرق ليست موضوعيَّةً أو بريئة؛ لأنَّ من أنتجوها كانوا مطوَّقين بالتّاريخ الاستعماريّ والعلاقات الاستعماريَّة، كما أنَّها "ترتبطُ بعمق مع عمليَّات السّلطة، وهذا التبصّر الفوكوي -نسبة لميشيل فوكو- يمنحُ عمل سعيد التّأسيسي -الاستشراق- جوهره، مما يُظهر إلى أي درجة كانت المعرفة حول الشّرق من حيث إنتاجِها ونشرِها عمليَّةً أيديولوجيَّة مُلازمةً للسلطة الاستعماريَّة". (لومبا،2007).

وقد تنوّعت أدوات ووسائل سعيد التّحليليَّة في دراسته للاستشراق فتناوَل الخطاباتِ السياسيَّة، والإنتاجاتِ الأدبيَّةَ، وأخبارَ الرّحّالة الغربيين، والدراساتِ العلميَّةَ والأكاديميَّة، بالاتّكاء على مفهوم التّمثيل (Representation) ليدرُس صورة الآخَر من منظور القُوى المركزيَّة، مُستندًا إلى تضافر السّلطة والمعرفة ضمن الخطاب.

الخطاب الكولونياليّ (colonial discourse):

إنَّ الخطابَ في اللغة العربيّة كلامٌ يحملُ معاني لشأن أو غرض. جاء في لسان العرب "يُقال: خَطبَ فلان إلى فلان فخاطبه أي أجابه، والخطاب والمخاطبة مراجعة الكلام، واسم الكلام الخطبة" (ابن منظور، د.ت).

ومفهوم الخِطَاب من المفاهيم مُتعدّدة المرجعيَّات، والبّارِزة في الدَّرس النّقديّ، فيَختَلِف مفهومُه تَبَعًا للحقل الذي يَنتَمي إليه. والخِطاب مُكوَّنٌ مِن تظافر بُعدين: البعد اللغويّ، والبعد الثقافيّ الاجتماعيّ. ويُؤكد ذلك ميخائيل باختين (Mikhail Bakhtin) (1895-1975) إذ يرى أنّ الخطاب يعني تضافر اللغة بالعلاقات الحواريَّة التّي ترتبطُ بها وتقومُ على أساسها، "فلا يجوز أن تُفصَلَ العلاقات الحواريَّة عن مجال الكلمة، أي عن اللغة بوصفها ظاهرةً ملموسة ومكتملة. إنّ اللغة تحيا فقط في الاختلاط الحواريّ بين أولئك الذين يستخدمونها، فالاختلاط الحواري هو الذي يُكوّن الجوّ الحقيقيَّ لحياة اللغة، فحياتها مُفعمة بالعلاقات الحواريّة بغضّ النّظر عن الميدان الذي تُستخدمُ فيه". (باختين، 1986).

ISSN: 2706-6495

وعليهِ فإنَّ مفهوم الخطاب عند باختين يرتبط بدراسة اللغة في سياقاتها الاجتماعيَّة، فالخطابُ ملفوظٌ حيّ ينبثقُ بدلالةٍ ما في لحظةٍ تاريخيَّة، وداخل بيئةٍ اجتماعيَّة مُحدّدتين. يقول باختين: إنّ الخطاب مُخترَقٌ بالأفكار العامة، والرُّؤى، والتّقديرات، والتحديداتِ الصّادرة عن الآخرين، ومُوجّهٌ نحو موضوعه، ويرتاد تلك البيئة المكوّنة من الكلمات المُتهيّجة بالحوارات، المتوتّرةِ بالأحكام، ثُمّ يَندسُّ بين تفاعلاتِها المُعقَّدة، مُنصهراً مع بعضِها ومُنفصلًا عن بعضها الآخر. كلّ ذلك يُمكن أن يُفيد كثيراً في تكوين الخطاب، وفي توضيحه داخل جميع طبقاته الدلاليّة. (باختين، 1987).

ومفهومُ الخطابِ مرتبطٌ باستحكام في النّقد الأدبيّ والثقافيّ بنظريَّات ما بعد البنيويَّة، لاسيما مشروع ميشيل فوكو النقديّ. وقَد جَرى تداول هذا المصطلح في نظريّة ما بعد الكولونياليَّة عقب توظيف إدوارد سعيد له، مُتَأثّراً بأطروحات ميشيل فوكو الذي طرح مفهوم (سُلطة الخطاب)؛ فالخطابُ عِندَه يتحوّل مِن مُجرّد كَلام إلى سلطةٍ "عن طريق مجموعة من الوسائل والأجهزة التي تدسّها الدولة في مُختلف مؤسَّساتها لتشكيل ذات الفرد وبنية وعيه وفق أنساقِها الأيديولوجيَّة التي تنزع لتأبيد وتثبيت هيمنتها". (الجرطي، 2016).

يتّضح أنّ النّص الأدبي جوهريّ في نظريَّة ما بعد الكولونياليَّة؛ فهو الذي يَسمحُ بالعثور على النّظام والمُمارَسة الخطابيَّة، كمَا بيَّن ميشيل فوكو (Michel Foucault)(1926- 1984) أنّ دراسة الخطاب لا تقومُ على ما قيل، إنّما على ما لم يُقَل، ولماذا. ولهذا يَظهرُ نَسَقان من الكتابة وفقًا لنظريَّة ما بعد الاستعمار: "كتابةُ المستعمِر الذي يهدف إلى تمثيل وتصوير الآخر بصورٍ مُحدّدة تُعزّزُ هيمنته وتخدم مَصالحَه ضمن استراتيجيَّات خطابيّة مُحدّدة، مُقابِلَ نَسق آخرَ مُعاكِس يتمثّل بكتابة المُستعمَر الذي يُصوّرُ ويكشف ويُقاوم النَّسق السَّابِق، ويتحرَّكُ خطابُ ما بعد الكولونياليَّة الأدبيّ في فضاء هذين المستويين" (أبو شهاب، 2013).

يتمثَّل الخطابُ عند فوكو في منظومةٍ من المقولات التي يُدرَكُ العالمُ داخلَ حدودِها؛ إذ تُمكّن الجماعة المُهيمنة من تكوين صورة عن الحقيقة من خلال فرض قيم ومعارف بعينها على الجماعات التابعة، ومِن هُنا يؤدّي الخطاب وظيفة تشكيل الواقع. "فالخطاب هو الذي يُضفي على الواقع معنى اجتماعيًّا وثقافيًّا، وهو مُركّب العلامات والمُمارسات التي تنظّمُ الوجود والإنتاج الاجتماعي. (Blommaert, 2005).

يقول فوكو "نُطلق على الخطاب مجموعة الملفوظات التي تنتمي إلى نفس التشكيلة الخطابية، أفترض أنّ إنتاج الخطاب في كل مجتمع هو في الوقت نفسه إنتاجٌ مُراقب، ومُنْتَقى، ومنظّم، ومُعاد توزيعه وتنظيمه من خلال عدد من الإجراءات التي يكون دورها هو الحدّ من سلطاته ومخاطره وإخفاء ماديّته الثقيلة الرَّهيبة" (فوكو، 2007)، والخِطَابُ كما يُصوّره أداة قُوى وهَيمنة، فهو لا يُترجم الصراعاتِ أو أنظمةَ السيطرة، لأنّه هو ما يُصارع من أجله، وما يُصارع بــه "هو السّلطة التي نحاول الاستيلاء عليها". (فوكو، 2007).

وقد أَشار إدْوَارد سعيد في كتابه (الاستشراق) إلى استفادَتِه من الفكرَةِ التي طرحها ميشيل فوكو عن الخطاب في تحديده لكُنْه الاستشراق، وحُجّته أننا "ما لم نفحص الاستشراق بوصفه لونًا من ألوان الخطاب،

فلن نتمكّن مُطلقًا من تفهّم المبحث البالغ الانتظام الذي مكّن الثقافة الأوروبية من تدبير أمور الشَّرق، بل ابتداعه في مجالات السّياسة وعلم الاجتماع، وفي المجالات العسكريّة، والأيديولوجية، والعلمية، والخيالية، في الفترة التالية لعصر التنوير" (سعيد، 2006).

سعى إدوارد سعيد من خلال كتاباته إلى تفكيكِ الأُسس المعرفيَّة للخطاب الكولونياليّ وعلاقته بالسّلطة. واستفاد في أطروحاته التي قدّمها في كتاب الاستشراق وبقيَّة أعمالهِ من هذا المفهوم، وهو ما أفضى لاحقًا إلى تشكيل دعائم نظريَّة ما بعد الاستعمار. ويتوصَّل سعيد في دراسته للاستشراق لنتيجةٍ مفادُها أنَّه في جوهرهِ خِطابٌ كولونياليّ وظيفيّ يؤدّي مُهمّةً استعماريَّة. فدراسةُ سعيد للاستشراق هي في الأساس دراسةٌ لخطـابٍ استعماريّ تلتحمُ فيه القوّة السياسيَّة المُهيمنة بالمعرفة والإنتاج الثقافيّ (البازعي، الرويلي، 2002).

والخطاب داخل نظريَّة ما بعد الكولونياليَّة هو مركّب العلامات والرموز والمُمارسات الذي ينظّم الوجود الاجتماعي والتوالد الاجتماعي داخل العلاقات الكولونياليَّة، وهو خطابٌ متضمن في الافتراضات التي تُقدّمها الحدَاثَةُ بشَأن التّاريخ واللغة والأدب والمُجتمع والثّقافة، وعلى ذلك فالخطاب ما بعدَ الكولونياليّ يشكّل منظومةَ المعرفةِ عن المستعمَر والقوى المستعمِرة والعلاقةِ بينهما.

- **التَّمثِيل (Representation):**

يُعدّ التَمثيلُ مفهومًا جوهريًّا في نظريَّة مَا بعد الاستعمار؛ فهو المفهوم الذي انطَلق مِنه رُوَّاد النظريَّةِ في دراساتهم كدراسة الاستشراق لدَى إدوارد سعيد، ودراسات التَّابع لدى غاياتري سبيفاك. وتتعدّد مرجعيَّات مصطلح التَمثيل أو التصوير ودلالاته بمقتضى الحَقل الذي ينتمي إليه، فهُو مصطلح له حضورٌ بارزٌ في الخطاب الأدبيّ، والثقافيّ، والاجتماعيّ، والفنّي، والسياسيّ، والتاريخيّ. ويُعنَى بِه في نظريَّة ما بعد الكولونياليَّة الوَصف أو الشَّكل الذي يُقدَّم به الآخر، ويُشير إلى الطَّريقة التي يُعادُ بها تَشكيل الصّورة وفقاً لمنظور من يقوم بفعل التّمثِيل.

وقد عُني بمسألة التمثيل مُنظّرو ما بعد الكولونياليَّة في غرّتهم إدوارد سعيد، وهومي بابا الذي اهتمّ بتمثيلات الآخر نقديًّا وتأثّر بِفكرة سعيد حول التّمثيل فرأى أنّ الخطاب الكولونياليّ يُنتج المستعمرين بوصفهم "آخر" باستخدام منظومة التمثيل.

إضافةً إلى غاياتري سبيفاك التي ناقشت مسألة إمكانيَّة تمثيل التَّابع لِنَفْسه فإشكاليَّة التابعين عند سبيفاك تكمُن في عجزهم عن تمثيلِ نفسهم بأنفُسهم.

ويُعرّفه إدوارد سعيد أنّه نظامٌ خَطابيّ يشمل بشكلٍ أو بآخر خيارات سياسيَّة وقُوّة سياسية وسُلطة ما، وارتِبَاطُ التّمثيل بمنظور من يقوم به هو ما يجعله مُتحيِّزاً ومُوجّهاً لتحقيق غايات مُعيَّنة؛ فعمليَّة التّصوير تُمثّل الخيار والانتقائيَّة والإقصاءات والتضمينات. (سعيد، 2008) ويرى سعيد أنّ المهيمن الغربي يُسوّغ عمليّة التمثيل بعجز الآخر -الشرق- عن تمثيل نفسه، ولهذا فإنّ الغربيّ يتولّى هذه المُهمّة في خطاباته ليُشكّل ملامح الآخر كما يبتغي. ويُؤكّد سعيد هذه الفكرة في كتابه الاستشراق حيثُ يستشهد بقول كارل ماركس: "إنّهم لا يستطيعون تمثيل أنفسِهم، ولابدّ أن يُمثّلهم أحَد" (سعيد، 2006) .

يؤمنُ إدوارد سَعيد أنّ الصُور والتمثيلات مُهمّة كأهميّة اللغة ولا يُمكن التخلّص منها، لكن "ماعلينا تدميره هو أنظمة التصوير التي تَحمِلُ في طيّاتها نوعاً من السُلطَة القمعيَّة؛ لأنّها لا تسمح ولا تدع مجالاً لِتَدخّل المُصوَّر. والتَصويرُ مبنيّ بوجهٍ أساسيّ كخطابٍ تصويريّ للآخر، الذي يُعرَّفُ نظرياً على أنّه أدنى منزلة على نحو جوهريّ" ويَقترِحُ بديلًا يتمثّل في "نظام تصويريّ يتميَّز بالمُشاركة والتّعاون بلا إكراه أو فَرض" (سعيد، 2006).

ونظرةُ سعيد للاستشراق مبنيّةٌ على أنه في الأساسِ عمليّة تَمثيل للشرق، يقول "إنّ الشَّرق الذي يتجلّى في الاستشراق هو نظام من التمثيلات مؤطر بطقم كامل من القوى التي قادت الشرق إلى مجال المعرفة الغربيّة والوعي الغربيّ، وفي مرحلة تالية الإمبراطوريَّة الغربيَّة، فهي إنتاجٌ معرفيّ" (سعيد، 2006).

وتكمن وظيفة ما بعد الاستعمار في رصد وتفكيك ونقد تلك التمثيلات التي يُقدّمها المُستعمِر عن المُستعمَر فالنظريّة تتحدّى "التمثيلات والسرديات التي مثّلت وقَوْلَبَت الآخر كمُتخلّف ودونيّ ولا عقلاني" (سعيد، 2006) وهنا تظهر العلاقة الوثيقة بين مفهوم التمثيل ونظرية ما بعد الاستعمار، فالتَمثيل يُساهم في عمليَّة صُنع الآخر وتَشكيله وتقييده، ومنه تذليل عَقبات فرض السَّيطَرة والهَيْمَنة عَليه ولذا يُعدّ مفهومًا مركزيًّا في نظريّة ما بعد الكولونياليَّة.

وقد جاءَت أحداثُ الحادي عشر من سبتمبر (2001) لتُسهم في إنتاج وتكريس المزيد من الصور النمطيَّة العُنصريّة والمُشوّهة عن المُسلمين والعرب والشَّرق عامةً، فأضحى الإرهابُ يُربَطُ بهم تلقائيًّا، وأخذت أجهزة الإعلام على عاتقها مهمة تمرير هذه الصور، يقولُ (إدوارد سعيد) في كتابِه (تغطية الإسلام): "فإذا بهذه الأجهزة تتصدى لتصوير الإسلام، وتحديد ملامحه، وتحليله، وتقديم دراسات فوريّة عنه، ومن ثم فقد جعلته في ظنهم معلومًا. ولكنّ هذه التغطية مُضلِّلة، وصاحَبَها قدرٌ كبير من التستّر والتكتّم، فالإسلامُ كان دائمًا وما يزالُ يُمثّل تهديدًا خاصًا للحضارة الغربية". (سعيد، 2005).

وهكذا يتَّضِحُ أنَّ الإسلامَ بات يُمثّل "رمزًا للرُعب، والإرهاب، وأفواج ممقوتة من البرابرة الخُبثاء. ولكنَّ هذه الصورة ليست اعتباطيَّة؛ فبالنسبة للغرب كان الإسلامُ صدمةً مأساويّة دائمًا، وحتى نهاية القرن السابع عشر كان الخطر العثماني المُتربّص بأوروبا يُمثل تهديدًا دائمًا بالنسبة للحضارة الغربيّة كلّها" (سعيد، 2006)، ولهذا يُجادلُ سعيد أنّ الطّريقة التي ينظر بها الغرب إلى شعوب الشَّرق الأوسط، هي طريقة النظر عبر عدسة تشوّه الواقع الفعلي لأولئك الشُعوب، فَيُصوَّرُ الإسلامُ على أنّه دينٌ متطرّف، ومُستبدٌ، ورجعيّ. فالمُستعمِر يُدرِك أنّ التدخّل العسكري التقليدي صعبٌ في الزّمن الحاضر، ولهذا فالمتاح هو الإرهابُ المحدود، الذي يتمّ عادةً في الخفاء بدون أن يَأخذ النّاس خبرًا، أو القضاء السّريع الحاسم على العدوّ الضعيف بعد حملة (بروباجندا) هائلة تصوّر ذلك العدوّ على أنَّه وحشٌ إرهابي (تشومسكي، 1998).

ويعتقد إدوارد سعيد أنّ الغرب لطَالما حَمَلَ صوره النمطيّة والعُنصريّة عن الشَّرق، ولكنّ أوروبا رَبَطَتها علاقة إقامة ومواجهة (كولونياليَّة) مع الشَّرق والعرب، إذ حكم الأوروبّيون معظم المناطق العربيّة والشَّرقية لعقود طويلة من الزمن، فكان لديهم على الأقل معرفة لما يبدو عليه العربيّ، أمّا الولايات المُتّحدة فليس لديها إقامة طويلة أو استعمار تقليدي في الشرق؛ لأنّها جديدةٌ على العالم بأسره، ولهذا فإنّ الشعب الأمريكيّ يميلُ لرؤية الشّرق بوصفه نوعا من الأفكارِ المُعلّبة، والصور النمطيَّة السريعة والتصريحات الإخبارية المُسجّلة.

ISSN: 2706-6495

كما أنّ تكرار اللغة السّلبيّة والعنيفة في الحديث عَن شَعبٍ ما يسهم في تمثيله بصورةٍ سلبيَّة وإدانته باستمرار؛ لأنّنا ننظر من خلال اللغة إلى أنفسنا وإلى الآخرين، وعليهِ فإنّ اللغة جزءٌ لا يتجزأ من تشكيل منظور المرء تجاه الأشياء؛ فاللغة ليست مجرّد أداة تواصل، كما أنّها ليست أداة حياديَّة أيضًا، فهي فاعلٌ في كل الاتّجاهات، فتكون أداة رد فعل أحياناً، وأداة هيمنة وسيطرة في أحيان أخرى، وتُمثّل أيضًا أداة قهرٍ وعنف ضارية. فإننا حينما نتفوّه بألفاظٍ مثل: (كافر، إرهابي، مُجرم، بربري...)، فإن اللغة تُؤسِّسُ لهذه المفاهيم مرجعياتٍ ثقافيّة تشكّل حاضنة اجتماعيّة لها، يُتَّفَق عليها وعلى مرجعيَّتها، ويأخذُ العنف اللغويّ يُمارس سطوته، فبمجرّد نعت الآخر بإحدى هذه الصفات، تتولَّد رغبة تلقائيّة بالإساءة إليه تتنامَى حتى تصل إلى القتلِ أحيانًا، وجرائم الكراهيّة التي يتزايد عدَدُها كلّ يوم خير مثال على ذلك، فسوء تمثيل شخصٍ ما أو نعته بالإرهابيّ، يُشرعن الإساءة له وتعذيبه ويستبيح مُمارسة العُنف عليه، وهنا تكمن خطورة مفهوم التّمثيل بوصفه أداة لتسهيل وتبرير وإحكام السّيطرة الاستعماريَّة.

الهَيمَنة (Hegemony):

إنَّ مفهوم الهيمنةِ من المفاهيم المركزيَّة الواجب تعريفُها في نظريَّة ما بعد الكولونياليَّة؛ لأنّه من المفاهيم المُهمّة التي استلهمها أعلام النظريَّة جميعهم في دراستهم للخطاب الكولونياليّ.

تَعني الهيمنةُ الإخضاعَ والسّيطرة بالقَبول، وقَد شاع واستُحدِث هذا المعنى في ثلاثينيّات القرن العشرين على يد المفكّر الإيطاليّ أنطونيو غرامشي (Antonio Gramsci) (1891-1937) الذي عارضَ النّظام الفاشي الذي ساد في إيطاليا؛ فبحث في قدرته على الهيمنة على المجتمع الإيطالي، وناقش سببَ النّجاح الكبير للطبقة الحاكمة في تعزيز مصالحِها في المجتمع. وحلّل من خلال مفهومه للهيمنة الوسائلَ المُباشرة والمُضْمرةَ التي تنتهجُها الدّولةُ في تكريس سلطتها. "فالهيمنة في الأساس تشيرُ إلى قوّة الطّبقة الحاكمة في إقناع الطّبقات الأخرى أنّ مصالحَها هي مصالحُ الجميع. ونتيجة لذلك فالسيطرة لا تُفرض بالقوّة ولا بالإقناع، وتتم من خلال القوى النّاعمة المُتمثّلة في قوى الاقتصاد والتّعليم والإعلام" (أشكروفيت، 2005).

ويرى غرامشي أنّ الهَيمَنةَ لها بُعدان، بعدٌ عالميّ وآخَرُ محلّي. ويتمثّل البُعد العالميّ بالهيمنة التي تُمارسها القوى المركزيَّة الدوليَّة كأمريكا وبعض دول أوروبّا على شتّى أنظمة دول العالم، واستغلال سلطة المؤسسات والشركات العابرة للقارات.

أمّا البُعد المحليّ فيتمثّل بالهيمنة التي تُمارسها الدّولةُ والمجتمعات السّياسيَّة على الشعوب؛ إذ تسعى الدّول المُهيمنة إلى قيادة الشعبِ وفرْضِ السُّلطةِ عليه باللجوء إلى القوى النَّاعمة، كالدّين ووسائل الإعلام والاتّصال والمُؤسَّسات التعليميَّة بدلًا من القوى الماديَّة، لفرْض هيمنتها وقَمْع الشعوب قمعًا ناعِمًا، وتوجيههم لتبنّي أفكارٍ وتوجّهاتٍ مُعيَّنة.

والمُثقّفون في رأي غرامشي لهم دورٌ كبير في فرض الهيمنة، فهم "نُوّاب الجماعة الحاكمة الذين يُمارسون وظائفَ ثانويّةً في الهيمنة الاجتماعيَّة والحكم السياسيّ، فتشمل وظيفةُ الهيمنةِ قَبولَ الجماهيرِ العريضة التلقائيّ للاتّجاه العام الذي تفرضه الجماعة الأساسيَّة الحاكمة على الحياة الاجتماعيَّة" (غرامشي، 1994).

ISSN: 2706-6495

ويعتقدُ غرامشي أنّ الطّبقة الحاكمة تُحكِمُ سيطرتَها وسُلطتَها؛ لهيمنتها الثقافيَّة على وعي الشعوب والطّبقات الأخرى، وهذه الهيمنةُ تتغلغلُ في القناعات الشخصيَّة للتابعين، وتُفضي لتبنّي وجهاتِ نظرِ المتبوعين وتصوّراتِهم عن العالم وقَبولِها كبدَهيّات، وبهذا النّحو فإنّ الدولة تتمكّن من مُمارسة الهيمنة والمُحافظةِ على استمرارها عبر اقتناع الطّبقات التّابعة. وعلى هذا فإنّ الهيمنة تُشير إلى السيطرة الثقافيّة للطّبقات الحاكمة، ودورها في التوجيه والتّحكم بالقَبول، وتُمثِّلُ البُعدَ الثقافيّ للمُمارسةِ السياسيَّة. وتَكمن قوة الهيمنة الثقافيَّة في كونها أَداةً استعماريَّة تدفع التَّابع إلى تبنّي فكر وتوجّه المتبوع الذي يَنشرُ قيمَه الغربيَّة عبر المؤسسات التّعليميَّة والعلميَّة والفنون والسينما والصُحف ووسائل الاتّصال الإعلامي، فالهيمنة أدَاة فرْضِ سلطةٍ لكن باقتناعِ المُهَيمَن عليهم.

وينبغي لنا إدراكُ الاختلاف الذي يقيمه غرامشي بين الهيمنة والسّيطرة، فقد حرَّرَ مفهوم الهيمنة من مدلولاته الاستراتيجيَّة، جاعلًا منه تصوّراً وأداةً لفهم المُجتمع بغيةَ تغييره؛ فالهيمنة تمتلكُ بعدًا شعبيًا وقوميًا بقدر ما لها من بُعد طبقيّ. وهي تستدعي توحيد مُختلف القوى الاجتماعيَّة في ثنايا تحالفٍ واسع يُعبِّر عن الإرادة الجمعيَّة للشعب والأُمّة، و"يغدو الخطابُ الكولونياليّ نفسه -منظوراً إليه من هذه الزّاوية- إعادةَ تنظيمٍ مُكثّفة ومُلحّة لإرساء الهيمنة الغربيَّة، فهو طريقة في تغيير أساليب العامة في التفكير وفي طبيعة شعورهم إزاء الأشياء، وتغيير تصوّرات النّاس حول ذواتهم، ومعاييرهم الأخلاقيّة، فضلًا عن تاريخهم. إذ يعملُ التحوّل الكاملُ الذي تُحدثه الهيمنة الغربية في وعي عامة النّاس على إرساء المركزيّة الغربيَّة وتوطيدها". (واليا، 2007).

وفي ظلّ المحاولات الاستعماريَّة التي تسعى لفرض الهيمنة الغربيَّة يَبرُزُ مفهومُ الإمبرياليَّة الثقافيَّة الذي بلوره عالم الاتّصال (هربرت شيل) وذلك في كتابه الموسوم بـ(الاتّصال والهيمنةِ الثقافيَّةِ)، وافتَرَضَ فيه سيطرة الدّول الغربيَّة على أجهزةِ الإعلام في شتى أنحاء العالم، ونتيجةً لتلك السّيطرة تنشَأ الهيمنةُ الثقافيَّة التي تُسفِرُ عن وَأدِ الثقافات المحليَّةِ، وإبدالها بالقيمِ والمعايير الغربيَّة، ومن ثَمَّ فرض السّيطرة عليها. وطبقاً لشيللر فإن الإمبريالية الثقافية المُرتبطة بالسيطرة الكولونيالية مُكمِّلةٌ للهيمنةِ العسكريَّة والاقتصاديَّة والسياسيَّة من خلال خضوع كافة الأنظمة لاسيّما الإعلاميةُ والتربوية في الدّول التّابِعة والمُغرَّبَةِ للقيم والمعايير الغربيّة، لتصبح نُسخةً مطابقةً للنّظام الغربيّ.

خاتمةُ البَحثِ والنتائج:

يتّضحُ لنا في نهاية البحث أنّه يخلصُ إلى جُملةٍ من النتائج، من أبرزها:

- إنّ مفهوم الاستشراق كما جاء به إدوارد سعيد -وما يرتبط به من مفاهيم أخرى كالتّمثيل والهيمنة- أسهم بصورةٍ مُباشرة في تشكيل أطروحات نظريّة ما بعد الكونياليَّة وفهم الظاهرة الاستعمارية وتمظهراتها المُختلفة، فنظريَّة ما بعد الاستعمار التي تُعدّ من أهم النظريّات الحديثة في السّاحة النقديَّة قد قامت وتبلورت أُطرها وركائزها على تضافر وتداخل المفاهيم التّأسيسيَّة السّابقة.

ISSN: 2706-6495

- إنّ الكولونياليَّة غيرُ مرتبطةٍ بمفهومٍ ما فهي حصيلةُ تلاحم وترابط مفاهيم ومصطلحات عدّة لا يُمكن فهمها خارج إطارها، كما أنّها غيرُ قابلَةٍ للتَّحديد الزّمنيّ؛ لأنَّها عمليَّة مُستمرّة، طالما أنّ هُناك قُوى وثقافةً مُعيّنةً تسعى إلى فرْض هيمَنتِها على الثّقافات الأُخرى.
- يتّضح من خلال البحثِ تَعدّد أشكالِ القوى الكولونياليَّة أو الاستعماريَّة وأساليبِها وأدواتها فتارّة تعتمد على التّمثيل، وتارة تلجأ للاستشراق، وتميل لتوظيف الخطابات في فرض الهيمنة، مِمّا يؤكّدُ أنّ الاستعمار في العصر الحديث استعمارٌ جديدٌ مُضمر يُغيّر جلده ويتحوّلُ عن أساليبه التقليديَّة الصّريحة إلى أساليبَ أشدَّ خفاءً وتأثيرًا لضمانِ تحقيق أهدافه وصون سيادته و هيمنته.

ومن أهمّ توصيات البحث ضرورة الولوج إلى النّظريَّات من مفاتيحها التّأسيسيَّة، لاسيما النظريات النقديّة الحديثة ذات الطّابع البيني التي تقوم على تداخل وتضافر عدّة اتجاهات مثل نظريّة ما بعد الاستعمار. إضافةً إلى ضرورة صبّ الاهتمام على دراسات النّاقد إدوارد سعيد باعتباره المُؤسّس الحقيقي للنظريَّة وفهمها وتحليلها في سبيل تقديم صورةٍ أعم وأشمل للنظريّة.

- **قائمةُ المراجع:**

- ابن منظور، د.ت، لسان العرب، تحقيق: عبد الله علي الكبير، محمد أحمد، هاشم الشاذلي، د.ط، القاهرة، دار المعارف.
- أبو شهاب، ر، (2013)، الرسيس والمخاتلة خطاب ما بعد الكولونيالية في النقد العربي المُعاصر النظريّة والتطبيق، ط1، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
- أشكروفيت، ب، وآخرون، (2010)، دراسات ما بعد الكولونيالية المفاهيم الرئيسية، ترجمة: أحمد الروبي، أيمن حلمي، عاطف عثمان، ط1، القاهرة، المركز القومي للترجمة.
- باختين، م، (1986)، شعرية دوستويفسكي، ترجمة: جميل نصيف التكريتي، ط1، المغرب، دار توبقال.
- البازعي، س، الرويلي، (2002)، دليل الناقد الأدبي، ط3، بيروت، لبنان، المركز الثقافي العربي.
- تشومسكي، ن، (1998)، ماذا يريد العم سام، ترجمة: عادل المعلّم، ط1، القاهرة، دار الشروق.
- الجرطي، أ، (2016)، أسئلة نشأة السرديّة العربية الحديثة، ط1، الأردن، دار فضاءات للنشر والتوزيع.
- الجندي، أ، د.ت، الاستعمارُ والإسلام، د.ط، القاهرة، دار الأنصار.
- الجهني، م، (2007)، الموسوعة المُيسّرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المُعاصرة، مج2، ط5، الرياض، دار الندوة العالمية.
- روبنسون، د، (2005)، الترجمة والإمبراطوريَّة: الدّراسات ما بعد الكولونياليَّة، دراسات الترجمة، ترجمة: ثائر ديب، ط1، القاهرة، المجلسُ الأعلى للثقافة.
- سعيد، إ، (2008)، السلطة والسياسة والثّقافة، ترجمة: نائلة حجازي، ط1، بيروت، دار الآداب.

ISSN: 2706-6495

- سعيد، إ، (2014)، الثقافة والإمبريالية، ترجمة: كمال أبو ديب، ط4، بيروت، دار الآداب.
- سعيد، إ، تغطية الإسلام، (2005)، ترجمة: محمد عناني، ط1، القاهرة، دار رؤية للنشر والتوزيع.
- عُمر، أ، (2008)، معجم اللغة العربية المعاصرة، ط1، القاهرة، عالم الكتب.
- غرامشي، أ، (1994)، كرّاسات السجن، ترجمة: عادل غنيم، د.ط، القاهرة، دارُ المستقبل العربيّ.
- فوكو، م، (2007)، نظام الخطاب، ترجمة: محمد سبيلا، د.ط، بيروت، دار التنوير.
- لومبا، أ، (2007)، في نظرية الاستعمار وما بعد الاستعمار الأدبيَّة، ترجمة: محمد عبد الغني غنوم، ط1، سوريا، دار الحوار.
- المسيري، ع، (2009)، حوارات الدكتور المسيري العلمانية والحداثة والعولمة، تحرير: سوزان حرفي، د.ط، دمشق، دار الفكر.
- واليا، ش، (2007)، إدوارد سعيد وتدوين التاريخ، ترجمة: أحمد خريس، ناصر أبو الهيجاء، ط1، الأردن، أزمنة للنشر والتوزيع.
- يُنظر: باختين، م، (1987)، الخطاب الروائي، ترجمة: محمد برادة، ط1، القاهرة، دار الفكر.
- Halwey, J, (2001), Encyclopedia of Postcolonial studies, WestPort, London, GreetWooed Press, P:359.
- Blommaert, J, (2005), Discourse: A Critical Introduction, New York, Cambridge university press

جميع الحقوق محفوظة © 2021، الباحثة/ روضة علي الحمادي، المجلة الأكاديمية للأبحاث والنشر العلمي.

(CC BY NC)